

دلالة الأصوات في القرآن

(سورة النجم و القمر نموذجاً)

عيسى متقى زاده*

كاوه خضرى**

الملخص

لقد تبارى العلماء و المفكرون في الكشف عن أوجه الإعجاز القرآني، فمنهم من توجه إلى لغته و أسلوبه و طريقة صياغته، و منهم من توجه إلى ما تلاه فيه من لمحات المعارف و إشارات العلوم المختلفة التي تمّ التوصل إليها الخ. يلتفت هذا البحث إلى وجه من وجوه الإعجاز القرآني و هو الإعجاز الصوتي، فلقد نزل القرآن الكريم نزولاً صوتياً، و لم ينزل مدوناً في سطور أو مكتوباً في كتاب، كما تمّ تبليغه أيضاً تبليغاً صوتياً من لدن جبريل. يعتبر الإعجاز اللغوي أو الصوتي من أجمل مظاهر الإعجاز في القرآن الكريم. تشمل الأجزاء الأخيرة من القرآن على أصول العقيدة الإسلامية مثل الإيمان بدعوة الرسول (ص) و اليوم الآخر. تمثل الأصوات اللغوية في الأبنية القرآنية معادلاً موضوعياً للمعاني المطروحة فيها، يراعى تفاوت الحالات الإنسانية، و يناسب مستويات المتلقين. هناك أهمية بالغة للخصائص الصوتية و اللفظية لسور تلك الأجزاء لتأدية المعاني التي تكمن في تناسب الأصوات و دلالاتها. فقد ترعرع هذا البحث المستفيض من خلال المنهج الوصفي - التحليلي في خصائص الصوت القرآني في سورتي النجم و القمر و يبيّن خصائص الأصوات القرآنية و دلالاتها في هاتين السورتين. و النتائج تدلّ على تناسب تامّ بين عدد تواتر الأصوات في هاتين السورتين مع دلالاتها، و إيصال المعنى على نحو بديع و عجيب. و هذا هو ما يُسمّى بالإعجاز الصوتي في القرآن الكريم.

الكلمات الرئيسية: الأصوات، الدلالة، سورة النجم، سورة القمر.

* أستاذ مساعد في اللغة العربية و آدابها بجامعة تربيت مدرس Emottagi@yahoo.com

** طالب ماجستير في اللغة العربية و آدابها بجامعة تربيت مدرس

تاريخ الوصول: ١٣٩١/٦/٢١، تاريخ القبول: ١٣٩١/٨/٢

١. المقدمة

القرآن الكريم هو كلام الله عزّ وجلّ، المنزّل على سيّدنا محمد (ص) لهداية البشر و تنظيم أمور حياتهم و تحقيق سعادتهم الدنيوية و الآخروية، المعجز بأقصر آية منه (فياض، ١٩٩٩: ١١). فكل شيء عنده بقدر و مقدار، و وصف الله القرآن بقوله عزّ وجلّ: «كِتَابٌ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ» (هود: ١). اعجاز القرآن الكريم موضوع هامّ لفت أنظار الباحثين منذ عهد بعيد حيث إذا ما تصفّحنا ما كتب عن هذا الموضوع وجدنا أنّهم لم يدخروا جهداً لتبيين حقائقه السامية. تشكّل نصيّة القرآن الإعجازية حضوراً دلاليّاً في الوعي الفلسفي و الديني و النقدي و بمقتضى ذلك أصبح محوراً لأهداف التفكير و التأليف في الأمة و ينبوعاً للكثير من جداول ثقافتها (مزارى، ٢٠٠١: ٨). و من هنا نشطت الجهود لتتبع الظواهر اللغوية في القرآن الكريم، للكشف عن أسرار هذا الكتاب المعجز، في نظمه و لفظه و صوته، المعجز في معانيه، المعجز في أثره (محمد داود، forum.stop55.com).

إنّ الصّوت المفرد هو الوحدة الأوّلية التي تتشكّل منها الألفاظ القرآنية، و لما كان كذلك، كان له الدور الأكبر في بلورة دلالتها، الأمر الذي دعا بعض الباحثين إلى القول بالقيمة التعبيرية للحرف الواحد أو الصّوت الواحد، و البحث عن العلاقة بين اللفظ و المعنى أو الصّوت و الدلالة، في الواقع يأخذ القرآن الكريم من الأصوات ما كان مناسباً للمقام، دالاً على المعنى. لا وعورة فيه إلّا ما جاء منه لغرض بلاغيّ فيطابق اللفظ مقتضى الحال دون أن ينقص من إعجازه شيء (بحرى، ٢٠١٠: ٦).

لا تحصى صور الإعجاز اللغويّ أو اللفظي في القرآن و منها الإعجاز الصوتي في القرآن الذي يتمثّل في الآيات القصيرة خاصّة في الأجزاء الأخيرة من القرآن. فهذه ميزة كبيرة للقرآن و لا شكّ فيه أنّ هذه السور تحوى على ما يستحسنه السمع. لا يمكن الوصول إلى سرّ هذا الجمال إلّا إذا تعرّفنا على المحاسن اللفظية و البديعية كالأصوات و نهاية فواصل الآيات. قام الباحثان في هذه المقالة بعدّ الأصوات في سورتي النجم و القمر لإلقاء الضوء على جزء صغير من هذا البحر العظيم. اخترناهما لقربتهما من ناحية الموضوع و وقعتهما في جزء واحد و لكثرة ما رأينا فيهما من دلالة الأصوات على موضوعهما. هناك تراث ضخم من الدراسات القرآنية بمختلف مجالاتها و في مجال الدلالة و الأصوات هناك دراسات كثيرة حول القرآن و إعجازه، بعضها درست الإعجاز اللفظي و الصوتي في القرآن من أهمّها:

١. مقالة عنوانها «دلالة الأصوات في فواصل آيات جزء عمّ - دراسة تحليلية» كتبها محمد رمضان البع يتناول هذا البحث الجزء الأخير من القرآن الكريم و معظم سورته مكية. حاول الباحث

فى بحثه أن يدرّس من خلال عمل جداول إحصائية أصوات فواصل الآيات ثمّ يبيّن علاقتها بدلالة الآية و معانى جزء عمّ بجميع سورته.

٢. كتاب عنوانه *الصوت اللغوى فى القرآن* ألفه محمد الصّغير، فقد ترعرع هذا البحث المستفيض فى خصائص الصوت القرآنى و ملامحه و ميزاته.

٢. منهج البحث

حاولنا خلال المنهج الوصفى و التحليلى أن ندرس الأصوات فى سورتي النجم و القيامة من خلال عمل جداول إحصائية، بحيث قمنا بعدّ الحروف كلّها فى هاتين السورتين ثمّ درسنا الموضوع من خلال تلك الجداول.

٣. أدب البحث النظرى

١.٣ الدلالة لغةً و اصطلاحاً

للفعل (دلّ) الثلاثى صور صرفية متعددة بفتح حرف (الدال). دلّه على الطريق يدّله بالضم (دلالة و دلالة) و (دُلولة) بالضم و الفتح أعلى (فيروز آبادى، ١٩٨٣: ٣٧٧؛ رازى، ١٩٨٣: ٢٠٩) الدلالة مصدر لفعل «دلّ يدلّ» و مصدره «دلولة و دلولة» و دليلي إلى الشىء و عليه: أرشده و هداه (معلوف، ١٣٨٦: ٢٢٠). و دلّلت بهذا الطريق عرفته، و دلّلت به أدلّ دلالةً و قال ابن دريد الدلالة، بالفتح حرفة الدّال و هو الذى يجمع بين البيعين (ابن منظور، ١٩٨٨: ١١/٢٤٨). الحديث عن المصطلح الدلالة يدعو إلى تحديد المفهوم اللغوى الأول لهذا المصطلح لأنّ الوضع اللغوى تصالح عليه أهل اللغة قديماً و يلقى بظلاله الدلالية على المعنى العلمى المجرد فى الدرس اللسانى الحديث و قد وقع اختلاف بين علماء اللغة المحدثين فى تعيين المصطلح العربى الذى يقابل مصطلح «سيمانتيك» بالأجنبيّة الذى أطلقه العالم اللغوى «بريل» (عبدالجليل، ٢٠٠١: ١٨). علم الدلالة هو اصطلاح حديث لكلمة «semantique» الإنجليزية و أصل الكلمة الفرنسية هو اصطلاح وضعه بريال سنة ١٨٩٧ و ورد فى كتابه مقالات فى علم الدلالة و الكلمة تعود إلى الكلمة اليونانية «sema» التى تعنى «العلامة». و مما يجدر ذكره هنا أنّ كلمة «sema» المؤلفة من الحرفين الأصليين s m قريبة الشبه من الجذر العربى المؤلف من الأصليين «س، م» اللذين يرافقهما حرف لين، فهناك: (سمة) بمعنى العلامة و هى مشتقة من الأصل (وسم) (عمران، ٢٠٠٧: ٩؛ داية، ١٩٩٦: ٦). فيقصد بالدلالة الكيفية التى يتمّ فيها استعمال

المفردات ضمن سياق لغوي معين، وبيان علاقاتها بالعملية الذهنية لأن الألفاظ لا تدلّ على الأمور الخارجية بل على الأمور الذهنية (زوين، ١٩٨٦: ٨٨). ويعرفه بعضهم بأنه «دراسة المعنى» أو «ذلك الفرع من علم اللغة الذي يتناول نظرية المعنى» (مختار عمر، ١٩٩٨: ١١). للدلالة أنواع مختلفة من أهمّ هي: الدلالة الصوتية، الدلالة الصرفية، الدلالة السياقية و الدلالة النحوية. لكن بما أن بحثنا يدور حول دلالة الأصوات في القرآن فنختصر ههنا في تفصيل الدلالة الصوتية و نترك الحديث عن سائر الدلالات.

٢.٣ الدلالة الصوتية

الواقع أنّ دلالة الصوت و قيمته التعبيرية في المادة اللغوية من القضايا التي شغلت اللغويين القدامى كابن جنّي و المحدثين كصباحي صالح. و لعلّ ابن جنّي من أكثر علماء اللغة تحمّساً للقضية الذي لا يشقّ غباره و يستهلّ باب هذه المناسبة الطبيعية بين اللفظ و مدلوله بقوله: «أعلم أنّ هذا موضع شريف لطيف، و قد نبّه عليه الخليل و سيبويه، و تلقته جماعة بالقبول له و الاعتراف بصحته» (بحري، ٢٠١٠: ٣٨). فالعربية تشتمل على كثير من الألفاظ الموحية بالمعنى و توجه نحوه بجرس حروفها و موسيقاها و لا شكّ فيه أنّ للحرف الواحد في تركيب الكلمة العربية قيمة تعبيرية، و أنّ الكلمة الثلاثية تعبّر عن معنى هو متلقى حروفها الثلاثة. و نتيجة تمازجها و تداخلها كأن تقول مثلاً (غ ر ق) يحصل معناها من تلاقى معاني حروفها فالغين تدلّ على غيبة الجسم في الماء و الراء تدلّ على التكرار و الإستمرار في سقوطه و القاف تدلّ على اصطدام الجسم في قعر الماء. و المعنى الإجمالي الحاصل من اجتماع المعاني الجزئية للحروف هو مفهوم مادة (غرق) (المبارك، ١٩٨١: ١٠٥). إذن «الدلالة الصوتية هي الدلالة التي تألفت منها الكلمة و تختلف دلالة الكلمات بحسب طبيعة هذه» (مطر، ١٩٩٨: ٤٧).

٣.٣ الصوت لغةً و اصطلاحاً

الصوت لغةً: «الجرس و جمعه الأصوات. الصوت صوت الإنسان و غيره و الصائت: الصائح و رجل صيّت: أي شديد الصوت» (ابن منظور، ١٩٨٨: ٦٨). «صات: صوتاً أي أحدث صوتاً و الصوتُ جمعه أصوات و الصيّت: الشديد الصوت. يقال: «رجل صاتٌ و صوتٌ صيّتٌ» أي شديد الصوت» (معلوف، ١٣٨٦: ٤٣٩). و يقول راغب الإصفهاني في كتابه مفردات الفاظ القرآن حول مادّة صوت: «هو الهواء المنضغط عن قرع جسمين و ذلك ضربان: صوت مجرد عن تنفس بشيء كالصوت الممتد و تنفس بصوت ما. و المتنفّس ضربان: غير اختياري كما يكون من

الحيوانات و من الجمادات و اختيارى كما يكون من الإنسان. و ذلك ضربان: ضرب باليد كصوت العود و ما يجرى مجراه و ضرب بالفم و الذى بالفم ضربان: نطق و غير نطق و النطق منه إمّا مفرد من الكلام و إمّا مركب كأحد الأنواع من الكلام» (راغب اصفهاني، ١٤١٢: ٣٣٥). أمّا اللغويون يقولون: «إنّ الحرف لا شكّ أنّه صوت. و الصوت إنّما يحدث عن تموج الهواء دفعاً و بعنفٍ يتأدّى إلى الهواء المنحصر فى صماخ السامع فيتشكّل هو (أى هذا الهواء المنحصر) بشكله، فتحسُّ به العَصْبَةُ الدقيقة المفروشة هناك و ذلك بقوتين: إحداهما هى التى تفيضُ على الهواء، بها تتم هذه التأديّة» (حسن جبل، ٢٠٠٦: ٢٤) و «الصوت ظاهرة طبيعية ندرك أثرها قبل أن ندرك كنهها. فقد أثبت علماء الصوت بتجارب لا يتطرق إليها الشكّ أنّ كلّ صوت مسموع يستلزم وجود جسم يهتزّ» (أنيس، ١٩٨٤: ٥).

٤.٣ علاقة الصوت و الدلالة

اللغة العربية تشتمل على كمّ كبير من الكلمات التى توحى بالمعنى و توجّه إليه انطلاقاً من الصوت الذى له جرس موسيقى يوحى بدلالة خاصة و عليه لا شكّ أنّ فى اللغة العربية خصيصة تبهر الناظرين و تلفت نظر الباحثين و هى تقابل الأصوات و المعانى فى تركيب الألفاظ و أثر الحروف فى تقوية المعنى و الإنسجام بين أصوات الحروف التى تتركب منها الألفاظ و دلالتها (المبارك، ١٩٨١: ١٠٥).

الواقع أنّ دلالة الصوت و قيمته الإيحائية فى المادة اللغوية من القضايا التى شغلت اللغويين المؤيدين لفكرة المناسبة بين الصوت و المعنى و قد صرح السيوطى فى كتابه المزهرة فى اللغة: «بأنّ لفيفاً من علماء العربية و أهلها كادوا يطبقون جميعاً على إثبات المناسبة بين اللفظ و المعنى أو الصوت و المعنى» (السيوطى، ١٩٨٦: ٤٨/٢ - ٤٩). و قد اتّخذ عباس حسن من أصوات الحروف وسيلة للتعبير عن الحاجة المادية و المعنوية، فكانت هذه الحاجة مرتبطة بالعالم الخارجى متخذاً فى ذلك الحواس و المشاعر الإنسانية (بحرى، ٢٠١٠: ٤٤). كما أنّ سيد قطب قد أشار إلى تلك العلاقة بين الصوت و إيحاءاته معتبراً: «أنّ لكلّ صفة من صفات الحروف صوت، و أصوات الحروف المختلفة تنزل منزلة الثبرات الموسيقية و تحدث جمالاً توقيعياً فى نفس القارىء أو السامع كما تحدث انفعالاً نفسياً ينتج عنه تنوع الصوت» (الخالدى، بلاتا: ١٨). إذن الحرف حجر الزاوية و الركن الركين فى الوحدة اللغوية، فإنّه يترك على اطراف الكلمة ظلالاً خفيفة تساعد الذهن على تصوّر الأشياء بما فيها من أشكال و ألوان و أبعاد، و العلاقة بين الصوت و الدلالة فى النظام القرآنى هى علاقة إعجازية، دلالية، مقصودة و ليست اعتباطية.

٥.٣ أقسام الأصوات

قسمت الأصوات اللغوية عموماً إلى قسمين هما: «الصوامت (consonants) و الصوائت أو أصوات العلة (vowels) و أساس هذا التقسيم يرجع إلى الطبيعة الصوتية لهاتين الزمرتين الصوتيتين. في هذا المقام نركز الإهتمام على صفات الأصوات التي نالت الحظ الأوفر من إهتمام اللغويين العرب حيث قسمت الصوامت إلى قسمين كبيرين هما:

١. الصفات العامة: تشمل الجهر و الهمس، الشدة و الرخاوة، و التوسط بين الشدة و الرخاوة.
٢. الصفات الخاصة: تشمل الإطباق و القلقل و الصفير و الغنة و الإنحراف و التفشى ألسخ» (السعران، ١٩٦٤: ١٦٠).

إلّا أننا في بحثنا نركّز على القسم الأول من الصفات الأصوات و هو الصفات العامة.

١.٥.٣ الأصوات المجهورة و المهموسة

قسم علماء اللغة الأصوات إلى المجهورة (les sonores) و المهموسة (les soudres) بحسب وضع الوترين الصوتيين. ففي حالة النطق بالمصوت المجهور تتقبض فتحة الزمار و يقترب الوتران الصوتيان أحدهما من الآخر فتضيق هذه الفتحة، و لكنها تسمح بمرور النفس الذي يندفع فيها، فيهتزّ الوتران الصوتيان (طحان، ١٩٧٢: ٥٠-٥١). و عكس الجهر في الإصطلاح الصوتي هو الهمس. فالصوت المهموس هو الذي لا يهتزّ معه الوتران الصوتيان. و عدد الأصوات المجهورة عند علماء العربية كما تبرهن عليها التجارب الحديثة هي ثلاثة عشر: «ب/ج/د/ذ/ر/ز/س/ض/ط/ع/غ/ل/م/ن» و يضاف إليها أصوات اللين و هي: «الف/و/ي» بالإضافة إلى الحركات الثلاث: الفتحة و الضمة و الكسرة. في حين أن الأصوات المهموسة هي اثنا عشر: «ت/ث/ح/خ/س/ش/ص/ط/ف/ق/ك/ه» (أنيس، ١٩٨٤: ٢٢؛ بحرى، ٢٠١٠: ٥١).

٢.٥.٣ الأصوات الشديدة و الرخوة

حين تلتقي الشفتان التقاءً محكماً فينحبس عندهما مجرى النفس المندفع من الرئتين لحظة من الزمن بعدها تتفصل الشفتان انفصلاً فجائياً، يحدث النفس المنحبس صوتاً انفجارياً، هو ما نرسم إليه في الكتابة بحرف الباء، فهذا النوع من الأصوات الانفجارية هو ما اصطلح القدماء على تسميته بالصوت الشديد و ما يسميه المحدثون انفجارياً «plosive». و ليس ضرورياً أن يكون انحباس النفس بالتقاء الشفتين، كأن يلتقي طرف اللسان بأصول التنايا التقاءً محكماً فلا يسمح بمرور الهواء المحبوس فجأة، و يحدث صوتاً انفجارياً هو الذي نرسم إليه بالذال أو التاء. و كذلك

قد ينحبس الهواء بالتقاء أقصى اللسان بأقصى الحنك الأعلى ثم ينفصلان فجأة فيحدث الهواء المندفع صوتاً انفجارياً نرّمز إليه بالكاف أو الجيم القاهرية. الأصوات العربية الشديدة كما تؤيدها التجارب الحديثة هي: «ب/ت/د/ط/ض/ك/ق/الجيم القاهرية» (أنيس، ١٩٨٤: ٢٤-٢٥).

أما الأصوات الرخوة فعند النطق بها لا ينحبس الهواء انحباساً محكماً، وإنما يكفي بأن يكون مجراه ضيقاً. و يترتب على ضيق المجرى أن النفس فى أثناء مروره بمخرج الصوت يحدث نوعاً من الصفير أو الحفيف تختلف نسبته تبعاً لنسبة ضيق المجرى. وهذه الأصوات يسميها المحدثون بالأصوات الإحتكاكية (fricatives) و على قدر نسبة الصفير فى الصوت تكون رخاوته. و الأصوات الرخوة فى اللغة العربية كما تبرهن عليها التجارب الحديثة هي: «س/ز/ص/ش/ذ/ث/ظ/ف/ه/ح/خ/غ» (المصدر نفسه: ٢٥-٢٦؛ بحرى، ٢٠١٠: ٥٧-٥٨).

٣.٥.٣ أصوات اللين (المدّ)

كما أشرنا علماء اللغة قسموا الأصوات إلى الصوامت و الصوائت و يمكن تسمية القسم الأول بالأصوات الساكنة و الثانى بأصوات اللين. فالصفة التى تجمع بين كل أصوات اللين هى أنه عند النطق بها يندفع الهواء من الرئتين ماراً بالحنجرة، فالصفة التى تختص بها أصوات اللين هى كيفية مرور الهواء فى الحلق و الفم و خلوّ مجراه من حوائل و موانع. و أصوات اللين فى اللغة العربية هى ما اصطاح القدماء على تسميته بالحركات من فتحة و كسرة و ضمة و كذلك ما سمّوه بالألف اللينة و الياء اللينة و الواو اللينة، و ما عدا هذا فأصوات ساكنة (محمد قدور، ١٩٩٩: ١٩١؛ أنيس، ١٩٨٤: ٢٧-٢٩).

٤. تحليل مواد البحث و نتائجها

١.٤ تواتر الأصوات المجهورة و المهموسة فى السورتين و دلالتها

قبل أن نبدأ بإحصاء الأصوات فى السورتين يجب أن نتعرّف على ما تنظم السورتين من ناحية الموضوعات العامة حتى نستطيع أن نحلّل و نستنتج استنتاجاً دقيقاً.

١.١.٤ سورة النجم

إنها من السور المكية فى الجزء السابع و العشرين و يبلغ عدد آياتها إلى إثنتين و ستين آية و هى تبحث عن موضوع الرسالة فى إطارها العام و عن موضوع الإيمان بالبعث و النشور شأن سائر السور المكية. ابتدأت السورة الكريمة بالحديث عن موضوع المعراج ثم تلاها الحديث عن

الأوثان و الأصنام ثم تحدّثت عن الجزاء العادل يوم الدين و قد ذكرت برهاناً على الجزاء العادل بأن كل إنسان ليس له إلا عمله و سعيه. و ختمت السورة الكريمة بما حلّ بالأمة الطاغية كقوم عاد، و ثمود، و قوم نوح و لوط، من أنواع العذاب و الدمار تذكيراً لكفار مكة بالعذاب الذي ينتظرهم بتكذيبهم لرسول الله (ص) و زجراً لأهل البغي و الطغيان عن الإستمرار فى التمرد و العصيان (الصابوني، ١٣٩٩: ٣ / ٢٧١). «هذه السورة فى عمومها كأنها منظومة موسيقية علوية، منغمة، يسرى التنغيم فى بنائها اللفظى كما يسرى فى إيقاع فواصلها الموزونة المقفاة. و يلحظ هذا التنغيم فى السورة بصفة عامة و يبدو القصد فيه واضحاً فى بعض المواضع و قد زيدت لفظة أو اختيرت قافية، لتضمن سلامة التنغيم و دقة إيقاعه - إلى جانب المعنى المقصود الذى تؤدبه فى السياق كما هى عادة التعبير القرآنى مثل ذلك قوله: «أفرايتم اللات و العزى و مناة الثالثة الأخرى». فلو قال و مناة الأخرى ينكسر الوزن. و لو قال: «و مناة الثالثة فقط يتعطل إيقاع القافية و لكل كلمة قيمتها فى معنى العبارة. و لكن مراعاة الوزن و القافية كذلك ملحوظة» (قطب، ١٩٨٠: ٦ / ٣٤٠٥).

٢.١.٤ سورة القمر

إنّها من السور المكية فى الجزء السابع و العشرين و يبلغ عدد آياتها إلى أربع و خمسين آية، و قد عالجت أصول العقيدة الإسلامية و هى من بدئها إلى ختمها حملة عنيفة مفزعة على المكذبين بآيات القرآن، و طابع السورة الخاص، هو الطابع التهديد و الوعيد، و الإنذار و الإنذار، مع صور شتى من مشاهد العذاب و الدمار. ابتدأت السورة الكريمة بذكر تلك «المعجزة الكونية» معجزة انشقاق القمر ثم انتقلت للحديث عن أهوال القيامة و شدائدتها بأسلوب مخيف يهزّ المشاعر. بعد الحديث عن كفار مكة يأتى الحديث عن مصارع المكذبين و ما نالهم فى الدنيا. ثم تلاه الحديث عن الطغاة المتجبرين من الأمم السالفة و بعد عرض هذه المشاهد الأليمة توجهت السورة إلى مخاطبة قريش و حذرهم مصرعاً كهذه المصارع بل ما هو أشد و أنكى «سِيَهْرُمُ الْجَمْعُ وَيُؤْتُونَ الدُّبْرَ [٤٦]، بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمْرٌ [٤٧]» (الصابوني، ١٣٩٩، ٣ / ٢٨٢). و لكن هذه الموضوعات ذاتها تعرض فى هذه السورة عرضاً خاصاً و أخص ما يميّزها فى سياق السورة أن كلّاً منها يمثل حلقة عذاب رهيبه سريعة لاهته مكروبه. يشهدا المكذبون، كأنما يشهدون أنفسهم فيها، و يحسون إيقاعات سياطها. فإذا انتهت الحلقة و بدأوا يستردون أنفاسهم اللاهته المكروبه عاجلتهم حلقة جديدة أشد هولاً و رعباً. و هكذا حتى تنتهى الحلقات السبعة فى هذا الجو المفزع الخائق. فيظلّ المشهد الأخير فى السورة. و إذا هو جو آخر، ذو ظلال أخرى. و إذا

عيسى متقى زاده و كاوه خضرى ١٠١

هو الأمن و الطمأنينة و السكينة. إنه مشهد المتقين: «إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهْرٍ [٥٥]، فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ [٥٦]» (قطب، ١٩٨٠: ٦ / ٣٤٢٥). قبل الإتيان بالجدول الإحصائية يحسن الإشارة إلى أن الأصوات المجهورة عند علماء العريضة تكون: «ب/ج/د/ز/ر/ذ/ض/ظ/ع/غ/ل/م/ن»، في حين أن الأصوات المهموسة تكون اثنا عشر: «ت/ث/ح/خ/س/ش/ص/ط/ف/ق/ك/ه».

جدول تواتر الأصوات المجهورة و المهموسة في سورة النجم: هذا الجدول صورة واضحة للكشف عن عدد تواتر الأصوات المجهورة و المهموسة مع بيان نسبتها المئوية في سورة النجم

النسبة المئوية	عدد التواتر	
٦٧/٥٥	٦٠٦	الأصوات المجهورة
٣٢/٤٥	٢٧٨	الأصوات المهموسة
%١٠٠	٨٨٤	المجموع

جدول تواتر الأصوات المجهورة و المهموسة في سورة القمر: و في هذا الجدول أيضاً نشاهد عدد تواتر الأصوات المجهورة و المهموسة مع بيان نسبتها المئوية المتعلقة في صورة القمر.

النسبة المئوية	عدد التواتر	
٦٧/٤٠	٧٠٧	الأصوات المجهورة
٣٢/٦٠	٣٤٢	الأصوات المهموسة
%١٠٠	١٠٤٩	المجموع

جدول تواتر الأصوات المجهورة و المهموسة في السورتين: هذا الجدول أجمع بين عدد تواتر الأصوات المجهورة و المهموسة مع بيان النسبة المئوية الكلية التي تتعلق بتكرار تلك الأصوات في السورتين.

النسبة المئوية	عدد التواتر	
٦٧/٩٢	١٣١٣	الأصوات المجهورة
٣٢/٠٨	٦٢٠	الأصوات المهموسة
%١٠٠	١٩٣٣	المجموع

من أهم النتائج التي تعطينا تلك الجداول الثلاثة في مجال الأصوات المجهورة و المهموسة، هي أن التكرار الأكبر في كلتا السورتين كان للأصوات المجهورة (٦٧/٩٢). و هذا من الطبيعي أن تكون عددها أكثر من الأصوات المهموسة لأن هذه الأصوات تناسب مع دلالات السور المكية

التي نراها أيضاً في هاتين السورتين حيث يدور الكلام فيهما حول الإيمان بالبعث والوحي والوحدانية والآخرة والنشور والإعذار والإنذار، مع صور شتى من مشاهد العذاب والدمار (الصابوني، ١٣٩٩: ٣/ ٢٧١-٢٨٢). «و الصور و الظلال في المقطع الأول في سورة النجم تشع من المجال العلوى الذى تقع فيه الأحداث النورانية و المشاهد الربانية التى يصفها هذا المقطع. و من الحركات الطليقة للروح الأمين و هو يتراءى للرسول الكريم. و الصور و الظلال و الحركات و المشاهد و الجوِّ الروحى المصاحب تستمد و تمد ذلك الإيقاع التعبيرى و تمتزج به و تتناسق معه و تتراءى فيه فى توافق منغم عجيب. ثم يعم ذلك العبق جو السورة كله و يترك آثاره فى مقاطعها التالية حتى تختم بإيقاع موح شديد الإيحاء مؤثر عميق التأثير. ترتعش له كل ذرة فى الكيان البشرى و ترف معه و تستجيب» (قطب، ١٩٨٠: ٦/ ٣٤٣٠). و هذا الإيقاع الشديد المؤثر لا يحصل إلا من خلال الأصوات المجهورة و السريعة التى تناسب مع دلالات الألفاظ و الأصوات فى السورتين. أنظروا إلى كيفية التناسب و التناسق بين الأصوات المجهورة و دلالاتها فى المقطع الثانى من سورة النجم حين يتحدث عن آلهتهم المدعاة: اللات والعزى و مناة. و أوهاهم عن الملائكة و أساطيرهم حول بنوتها لله. و اعتمادهم فى هذا كله على الظن الذى لا يغنى من الحق شيئاً. بينما الرسول (ص) يدعوهم إلى ما دعاهم إليه عن تثبت و رؤية و يقين. «أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ [١٩]، وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ [٢٠]، أَلَكُمُ الذَّكْرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ [٢١]، تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ [٢٢]». عدد تواتر الأصوات المجهورة فى تلك الآيات يبلغ إلى أكثر من ٢٥ صوتاً و هذا أفضل حجة على إثبات المدعا و هو التناسب بين الأصوات المجهورة مع دلالاتها فى السور المكية.

ثم نتوقف عند هذا المشهد فى سورة القمر و التى محتوياتها واردة فى سور مكية شتى. «فهى مشهد من مشاهد القيامة فى المطلع، و مشهد من هذه المشاهد فى الختام. و بينهما عرض سريع لمصارع قوم نوح، و عاد و ثمود. و قوم لوط، و فرعون. و كلها موضوعات تزخر بها السور المكية فى صور شتى. و لكن هذه الموضوعات ذاتها تعرض فى هذه السورة عرضاً خاصاً، يحيلها جديدة كل الجدة. فهى تعرض عنيفة عاصفة، و حاسمة قاصمة، يفيض منها الهول، و يتناثر حولها الرعب، و يظللها الدمار و الفزع و الانهيار» (قطب، ١٩٨٠: ٦/ ٣٤٢٨). و هذا عرض آخر من سورة القمر حول دلالة الأصوات المجهورة على المعانى: «حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النَّذْرُ [٥]، فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكْرٍ [٦]، خُشَعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ [٧]، مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ [٨]، كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ [٩]». نشاهد حرف الراء و هى

تكرر فى كل فاصلة من تلك الآيات تكراراً انفجارياً و هذا التكرار فى هذا الصوت يدل على شدة الجهر بالرأى أمام الغير حيث يجعل هذا الجهر و التكرار المخاطب أن يشعر بقسوة الكلمة التى تعبر عن شدة الإنذار.

لكن و إن كانت عدد تواتر الأصوات المهموسة الواردة فى السورتين أقل من الأصوات المجهورة و النسبة المئوية التى تختص بتلك الأصوات هى: (٣٢/٠٧) إلا أنها تحمل دلالات معينة فى مواضعها، حيث نرى أن صوت السين تواتر فى هاتين الآيتين فى سورة النجم: «وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى [٣٩]، وَأَنْ سَعِيهِ سَوْفَ يُرَى [٤٠]». فلا تحمل نفس حمل أخرى، لا تخفيفاً عن نفس و لا تثقيلاً على أخرى. فلا تملك نفس أن تنقص من حملها و وزرها. و لا تملك نفس أن تتطوع فتحمل عن نفس شيئاً. عندما يرى الإنسان بأنه مسؤول عن حياته و احد لا يستطيع أن يخفف عما حملت عليه فلا بد أن يخضع لشريعة الخالق، إذن نرى لا استفاد فى هذا السياق من المجهورة فى الخطاب إليهم.

و من الأصوات المهموسة التى كان أكثر تواتراً فى هاتين السورتين هى صوت الهاء التى تواتر ١١٣ مرة فى السورتين. نشاهد كمال التناسب بين الأصوات المهموسة و دلالاتها فى حروف الهاء و السين معاً فى هاتين الآيتين من سورة القمر: «سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ [٤٦]، بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَ السَّاعَةُ أَدْهَى وَ أَمْرٌ [٤٧]» و هذا خضوع تام أمام جلاله و عظيم سلطانه و لا يحتاج لأداء المعنى إلى الأصوات المجهورة.

٢.٤ تواتر الأصوات الشديدة و الرخوة فى السورتين و دلالاتها

الأصوات العربية الشديدة كما تقدمت ذكرها هى: «ب/ت/د/ط/ض/ك/ق/الجيم القاهرية». و الأصوات الرخوة فى اللغة العربية كما تبرهن عليها التجارب الحديثة هى: «س/ز/ص/ش/ذ/ث/ظ/ف/ه/ح/خ/ع».

جدول تواتر الأصوات الشديدة و الرخوة فى سورة النجم: هذا الجدول يوضح لنا عدد تواتر الأصوات الشديدة

و الرخوة مع بيان نسبتها المئوية فى سورة النجم

النسبة المئوية	عدد التواتر	
٤٢/٧٨	١٧٨	الأصوات الشديدة
٥٧/٢١	٢٣٨	الأصوات الرخوة
٪١٠٠	٤١٦	المجموع

١٠٤ دلالة الأصوات في القرآن؛ سورة النجم و القمر نموذجاً

جدول تواتر الأصوات الشديدة و الرخوة في سورة القمر: هذا الجدول يوضح لنا عدد تواتر الأصوات الشديدة و الرخوة مع بيان نسبتها المئوية في سورة القمر

النسبة المئوية	عدد التواتر	
٥٠/٨٧	٢٦١	الأصوات الشديدة
٤٩/١٢	٢٥٢	الأصوات الرخوة
%١٠٠	٥١٣	المجموع

جدول تواتر الأصوات الشديدة و الرخوة في السورتين: هذا الجدول جمع بين النتائج الحاصلة من إحصاء الأصوات في الجدولين السابقين مع بيان النسبة المئوية الكلية لتواتر الأصوات الشديدة و الرخوة في السورتين

النسبة المئوية	عدد التواتر	
٤٧/٢٥	٤٣٩	الأصوات الشديدة
٥٢/٧٤	٤٩٠	الأصوات الرخوة
%١٠٠	٩٢٩	المجموع

فمن خلال الجدول نلاحظ أن عدد تواتر الأصوات الشديدة كان قريباً من عدد تواتر الأصوات الرخوة و إن كان أقل تواتراً من الأصوات الرخوة في المجموع. حيث تكررت صوت الباء ٥٩ مرة في سورة القمر و ٤٤ مرة في سورة النجم. و تكررت صوت التاء ٤٠ مرة في سورة النجم و ٣٦ مرة في سورة القمر و هذا يدلنا إلى نوع من التناسب حول تكرار الحروف الشدة في هاتين السورتين. كما أشرنا المعنى الإصطلاحي لأصوات الشدة هو حبس النفس في مجرى مخرج الحرف و هذا الحبس يكون بالالتقاء الشفتين التقاء محكماً (كما في نطق الباء) فهذا الاعتراض المحكم أو الالتقاء المحكم يحبس النفس حبساً تاماً لا يدعه يخرج و هذا يشبه شدّ فم الكيس (أى ربطه) شدّاً تاماً فلا يخرج منه شيء (حسن جبل، ٢٠٠٦: ٥٨). و هذا يناسب و الدلالات التي تتحدث عن موضوع الرسالة في اطارها العام و عن الأوثان و الأصنام التي عبدها المشركون من دون الله. ثم استمر الكلام في سورة القمر حيث يتحدث عن الطغاة المتجبرين من الأمم السالفة مع تصوير أنواع العذاب (الصابوني، ١٣٩٩: ٣/ ٢٧١-٢٨٢). أنظروا إلى تواتر الأصوات الرخوة في هذه الآية من سورة القمر حيث نشاهد تناسقاً تاماً بين الأصوات و دلالاتها: «أَقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَأَنْشَقَّ الْقَمَرُ [١]» هناك تواتر جميل من الأصوات الشديدة (أصوات القاف و التاء و الباء) في هذه الآية الكريمة التي يناسب مع دلالتها. «مطلع باهر مثير، على حادث كوني كبير و إرهاب بحادث أكبر. لا

يقاس إليه ذلك الحدث الكونى الكبير، فيا له من إرهاب و يا له من خبر. و لقد رأوا الحدث الأول فلم يبق إلا أن ينتظروا الحدث الأكبر» (قطب، ١٩٨٠: ٦ / ٣٤٣٨). و فى تلك الآيات نشاهد مشهداً آخرًا من جمال التواتر للحرف القاف فى سورة النجم التى زادت السورة جمالاً و هو: «وَ أَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى [٥٠]، وَ ثَمُودَ فَمَا أَبْقَى [٥١]، وَ قَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَ أَطْغَى [٥٢]» فهى التى تخرج بالتقاء عكدة اللسان بأصل اللهاة كما صرح الخليل و ابن سينا (حسن جبل، ٢٠٠٦: ٩٥).

فمن خلال الجدول أيضاً نلاحظ أنّ أصوات الرخوة كان أكثر تواتراً من الأصوات الشديدة فى هاتين السورتين حيث اختصت الأصوات الرخوة ٥٢/٧٤ بالمئة من كل الحروف الشديدة و الرخوة فى السورتين. و من الحروف الرخوة التى كان أكثر تواتراً من سائر الحروف هى حرف الهاء التى تكررت فى سورة النجم ٦٢ مرة و فى سورة القمر ٥١ مرة و زادت السورتين جمالاً و لها دلالتها الخاصة فى السورتين. أنظروا إلى تواتر الحرف الهاء و تناسبها مع المعنى الذى تنظمها فى هذه الآية الكريمة من سورة النجم: «إِنَّ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءَ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَ آبَاؤُكُمْ مَّا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَ مَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَ لَقَدْ جَاءَهُمْ مِّن رَّبِّهِمْ الْهُدَى [٢٣]» هذه الأسماء: اللآت و العزى و مناة و تسميتها آلهة و تسميتها ملائكة. و تسمية الملائكة إناثاً و تسمية الإناث بنات الله كلها أسماء لا مدلول لها و لا حقيقة وراءها. و كل مالم يقرره الله فلا قوة فيه و لا سلطان له لأنه لا حقيقة له و للحقيقة ثقل و للحقيقة قوة. «و للحقيقة سلطان فأما الأباطيل فهى خفيفة لا وزن لها. ضعيفة لا قوة لها. و فى منتصف الآية يتركهم و أوهمهم و أساطيرهم و يترك خطابهم و يلتفت عنهم كأنهم لا وجود لهم و يتحدث عنهم بصيغة الغائب: (إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس). فلا حجة و لا علم و لا يقين. إنما هو الظن يقيمون عليه العقيدة و الهوى يستمدون منه الدليل. و العقيدة لا مجال فيها للظن و الهوى و لا بد فيها من اليقين القاطع و التجرد من الهوى و الغرض، فانقطع العذر و بطل التعلل» (قطب، ١٩٨٠: ٦ / ٣٤٤٦). فهنا يدور الكلام حول جهل المشركين و لا يحتاج الكلام إلى الشدة، إذن نشاهد تواتر حرف الهاء بوضوح تامّ لأداء دلالتها و هى إيتاء الوعى إلى المشركين و بيان ضعفهم أمام سلطان الخالق.

٣.٤ تواتر الأصوات اللينة (المدّ) فى السورتين و دلالاتها

أصوات اللين فى اللغة العربية كما تقدّم ذكرها هى ما اصطلىح القدماء على تسميته بالحركات من فتحة و كسرة و ضمة و كذلك ما سمّوه بالألف اللينة و الياء اللينة و الواو اللينة.

١٠٦ دلالة الأصوات في القرآن؛ سورة النجم و القمر نموذجاً

جدول عدد تواتر الأصوات اللينة في سورة النجم: في هذا الجدول قمنا بإحصاء الأصوات اللينة مع النسبة المئوية التي تتعلّق بتواتر تلك الأصوات في سورة النجم

الأصوات اللينة	عدد التواتر	النسبة المئوية
الألف	٢٦٦	٦١/٨٦
الواو	١١٤	٢٦/٥١
الياء	٥٠	١١/٦٢
المجموع	٤٣٠	٪١٠٠

جدول عدد تواتر الأصوات اللينة في سورة القمر: جدول يوضّح لنا عدد تواتر الأصوات اللينة مع بيان نسبتها المئوية في سورة القمر

الأصوات اللينة	عدد التواتر	النسبة المئوية
الألف	٢١١	٥٨/٧٧
الواو	٩٨	٢٧/٢٩
الياء	٥٠	١٣/٩٢
المجموع	٣٥٩	٪١٠٠

جدول عدد تواتر الأصوات اللينة في السورتين: في هذا الجدول نشاهد الجمع بين كل الأصوات اللينة مع نسبتها المئوية التي تتعلّق بتواترها في السورتين.

الأصوات اللينة	عدد التواتر	النسبة المئوية
الألف	٤٧٧	٦٠/٤٥
الواو	٢١٢	٢٦/٨٦
الياء	١٠٠	١٢/٦٧
المجموع	٧٨٩	٪١٠٠

حسب إحصائنا في هذا الجدول نلاحظ أنّ غالبية التواتر كانت في صوت الألف (٦٠/٤٥) في السورتين. ثمّ تلاها صوت الواو و تواترت ٢١٢ مرة و اختصت ٢٦/٨٦ بالمئة من الحروف اللينة في هاتين السورتين و حرف الياء هي أقلّ تواتراً من حرف الألف و الواو. من المعروف أنّ أصوات اللين عند النطق بها يندفع الهواء من الرئتين ماراً بالحنجرة، ثمّ يتخذ مجراه في الحلق و الفم في مرّ ليس فيه حوائل تعترضه و هو ما يتناسب مع قوّة المعاني التي تشير إليها السور

المكينة. فلعل امتداد النفس عند النطق بالألف و ما يصحبه من امتداد الصوت يتناسب مع اسلوب الدعوة إلى الله و المجادلة لأهل الباطل بالبراهين العقلية، و ما ينبغى أن يكون عليه الداعية من طول النفس، و امتداد الصوت و هو ينادى المشركين و يلح عليهم بنفسه و صوته حتى يقربهم له، و يجذب أسماعهم إليه، و يسمعهم أقواله، و يقنعهم بما يدعو إليه (البع، ٢٠٠٩: ٢٠). كما نرى هذا التناسب بين الأصوات اللين و دلالاتها فى نهاية الفواصل الآيات فى سورة النجم حيث يقول الله تعالى: «وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ [١]، مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ [٢]، وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ [٣]، إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ [٤]، عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ [٥]، ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ [٦]، وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ [٧]» «فهذه فواصل متساوية فى الوزن تقريباً، و لكنها على نظام غير نظام الشعر العربى، كما نجد لها ذات إيقاع موسيقى متّحد، ينبعث من تآلف الحروف فى كلماتها و تناسق الكلمات فى جملها» (عبدالنواب، ١٩٩٥: ٨٢). حيث تواتر حرف المدّ و صوت الألف الممدودة التى لها دلالات مثل تذكير الله تعالى لمن لا يؤمن برسالة رسوله و إجبارهم على الإصغاء على ما يريد، إذن يمكننا أن نقول: الدلالة المنشودة فى تكرار الحرف المد فى تلك الآيات هى إثبات الرسالة و الإيمان بالملائكة و تصديق نبوة الرسول (ص).

كما نرى فى مشهد آخر من سورة النجم حيث يتحدّث الله تعالى عن ضعف الأنسان و قدرته: «وَأَنَّهُ خَلَقَ الزُّوجَيْنِ الذَّكَرَ وَ الْأُنثَىٰ [٤٥]، مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ [٤٦]، وَ أَنَّ عَلَيْهِ النَّشَأَةَ الْأُخْرَىٰ [٤٧]، وَ أَنَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ وَ أَقْنَىٰ [٤٨]، وَ أَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشَّعْرَىٰ [٤٩]» الغرض فى تلك الآيات أنه تعالى هو القادر على إيجاد الضدين فى محل واحد و فيه تنبيه على كمال قدرته و هذا من عجب صنعته و كمال قدرته و هو ربُّ الكوكب المضىء المسمى بالشعرى. تواتر حرف المدّ ٧ مرّات ليفكّر المخاطب فى المشهد الذى يتحدّث عن إعادة خلق النّاس للحساب و الجزاء (الصابونى، ١٣٩٩: ٣/٢٧٩). إذن نرى أن الله تعالى قرب تلك المفاهيم إلى الأذهان و الأفهام مع إيقاع موسيقى مترنم و مراعاة الفواصل و رءوس الآيات ممّا له أجمل الوقع على السمع و الفؤاد. هنا يحسن الإشارة إلى كلام من محمد حسين على الصغیر حين يتحدّث عن علاقة الصوت و اللفظ فى السور القرآنية: «و رأيت أن القرآن الكريم قد اختار اللفظ المناسب للصوت المناسب فى الموقع المناسب، فجاء كل لفظ بمكانه الصوتى من العبارة القرآنية أو الجملة أو الآية، و لاحظت أن استنباط كل هذه المقاسات صوتياً يوحى باستقلالية الكلمة المختارة لدلالة أعمق، و إشارة أدق، بحيث يتعذر على أية جهة فنية استبدال ذلك بسواه، إذ لا يودى غيره مراده، و ذلك معلم واضح من معالم الإعجاز اللغوى و البياني فى القرآن» (الصغیر، بلاتا: ٢٠٤). إذن الألفاظ دالة على الأصوات، و قد توافرت

في القرآن طائفة من الألفاظ الدقيقة عند إطلاقها، يكون اللفظ يدل على ذات الصوت، و الصوت يتجلى فيه اللفظ نفسه كما رأينا في هاتين السورتين، يستفهم من هذا القول بأن الأصوات و دراستها في القرآن الكريم تكون على مسيس الحاجة بالاهتمام.

٥. الإيقاع الصوتي في القرآن

لا شك أن هناك أهمية بالغة للإيقاع في اللغة العربية عموماً و في لغة القرآن خاصة و لا نغلو القول إن الجمال الصوتي، و التناسق الفني، و الإيقاع الموسيقي، هو أول شيء احسسته الأذن حين نزل القرآن الكريم آخذاً الألباب بجمال عباراته و روعة إيقاعاته و نظمه. إذن امتازت لغة القرآن الكريم بإيقاعيتها و موسيقاها، فمثلت الصورة التناسق الفني فيه، و مرآة عاكسة لتصوير معانيه، إيقاعاته لا تبع من وزن شعري أو تفعيلات كالشعر العربي و إنما تتبع من مكونات اللغة نفسها، بآلاف اصواتها، و تساوق الفاظها و تناسقاها و قابليتها التناغمية على أداء المعنى و دلالتها عليه (محمد مهدي، ٢٠١٠: ٤). و لهذا سحر القرآن العرب منذ اللحظة الأولى، سواء منهم في ذلك من شرح الله صدره للإسلام و من جعل على بصره منهم غشاوة. إن هذه السمة التي يتمتع بها النص القرآني تشير إلى مسألة جوهرية غاية في الأهمية ألا و هي مدى مراعاة النص القرآني للمتلقى و سمعه الذي يكون الأداة الأولى من أدوات فهم النص و استيعابه طاقات النص الدلالية الظاهرة و الباطنة.

الإيقاع الصوتي ينشأ من أصوات الحروف و الحركات في الكلمة، و من اختيار الكلمات و من تنضيد الجملة من كلمات و ما فيها من حركات و مدّات منسوقة، و من منهج التركيب، و مواقع الكلمات، و من طول الكلمات و الجمل و قصرها، و من مقاطع الجمل و فواصلها كل ذلك روافد رئيسية يستجمع منها الإيقاع الصوتي. إن منابع الموسيقى الظاهرة يمكن ردّها إلى ما يأتي: الموسيقى النابعة من تآلف أصوات الحروف في اللفظة الواحدة و الحروف، كما لا يخفى أن الأصوات متفاوتة الجرس يقرع بعضها بعضاً حين تجتمع في اللفظ فينتج عن تقارعها المتناغم سلّم موسيقي جميل. الموسيقى النابعة من تآلف الكلمات تنتظم في الترتيب فقرات و جمل، فالألفاظ المفردة تقرع الألفاظ المفردة المجاورة لها سابقاً و لاحقاً و ينجم عن تقارعها المتناسق موسيقية جميلة. على أن هذا التناغم الصوتي بين الألفاظ المفردة و المركبة، لا تتم إلا بتمام التناسق بين أصوات اللفظ و مدلوله من المعنى (شاملي و طالبى قره قشلاقي، ٢٠١١: ٨٣).

إن الإيقاع الصوتي ظاهرة فنية بارزة في التعبير القرآني، فالإنسان حين يسمع آياته

تتلى عليه، يشعر بهذا الإيقاع المتميز لأسلوبه، و هو إيقاع يأخذ بمجامع القلوب فيأسرها و يسحرها، و يجعلها تصغى إلى معانى الآيات و مفاهيمها المتعالية. الأصوات بصفتها إحدى وجوه الإعجاز اللفظى فى القرآن، توذى دورها فى ذلك الإيقاع، عندما جاءت ضمن سياق تركيبى، و تألفت حروفها مع الحروف مخرجاً و صفةً و حركةً (التحريشى، ٢٠٠٠: ٢٦). إذن هذا التناسق و التآلف هو الذى يجعل اللفظ سهلاً على اللسان من جهة، و على السمع من جهة أخرى. و قد اهتمّ الدارسون العرب المحدثون بهذه الخاصية يقول أحدهم: «لقد لاحظ الأقدمون أن الكلمة العربية إذا أريد لها أن تكون فصيحة مقبولة: فإنها تتطلب فى مخارج حروفها أن تكون متناسقةً و لا تتسامح اللغة فتتخلى عن هذا المطلب إلّا فى الحدود فى مثل حالات الزيادة و الإلصاق و نحوهما» (المصدر نفسه: ٢٥). صياغة القرآن الكريم لها أبعاد متعددة تتناظر فيما بينها، و يعلو الجمع بينها فى نظام واحد متنسق خال من التناقض أو الاضطراب. فالصياغة القرآنية سلاسل صوتية متتابعة فى قطرات نغمية، تتناسق وحداتها وفق منهج خاص مكونة صيغاً و ألفاظاً تحتل مواقع معينة منتقاة داخل تشكيلات من الجمل و العبارات، و هذه العناصر الصوتية و الصرفية من كلمات و جمل لا يستقل بعضها عن بعض فى السياق، بل تتآلف فيما بينها، و تنازراً علاقاتها الإيقاعية النغمية و الإيحائية المعنوية المتبادلة، و تنصهر جميعها فى بوتقة واحدة، و تتفاعل فى نشاط خلاق تركيبى و تصويرى معاً (بدر، www.eajaz.org). و هذا الإيقاع فى سور الأجزاء الأخيرة تكون ذا صلة تامّة بدلالات إنذارية، تأكيدية، و تذكيرية كما رأينا فى سورتي النجم و القمر. و كل ذلك كان بمساعدة الأصوات المجهورة و الشديدة و المهموسة و الرخوة و الممدودة، فى المكان المناسب.

و من هنا يتجلّى البعد الفنى لإعجاز القرآن الكريم، حيث أنّه و إن رُصفت آياته بذات الحروف و الكلمات العربية، إلّا أنّه خرج على العرب بهيكل جديد، و قالب خاص، و نسيج بديع ما عهدوه، و لم تُسعفهم مواهبهم الفذة فى محاكاته أو النسيج على منواله، أو الإتيان بمثله، فقد كان القرآن و لم يزل نسيج وحده (شاملى و نجاريان، ٢٠٠٥: ٤٤؛ عبدالنواب، ١٩٩٥: ٧٨). إذن رأينا بأنّه كان اختيار اللفظ المناسب للصوت المناسب حقلاً يانعاً فى القرآن لا للدلالة الصوتية فحسب، بل لجملة من الدلالات الإيحائية و اللغوية و الهامشية، و تلك ميزة القرآن الكريم فى تخيير الألفاظ. هذا و لا يعنى وصولنا لهذه النتائج أن الألفاظ القرآنية و أصواتها حكرًا عليها، إنّما قد ذكرنا ما استبان لنا منها و ما خفى علينا أكثر، فهذا ما وصلنا إليه بعونه تعالى فمن اجتهد فأخطأ فله أجر و من اجتهد فأصاب فله أجران و الله من وراء القصد.

٦. النتيجة

من أبرز آفاق التصوير الفني في سورتي النجم و القمر: نغمة الأصوات و جرس الكلمات و هذا التصوير يكون وفق نظام دقيق و من جرّاء تلك التصاوير ترسم المعاني و الدلالات، و هي تتفاعل في نفوس الناس حيّة.

مما زاد في روعة أسلوب سورتي النجم و القمر ذلك الإنسجام التام بين الإيقاع الصوتي و الموقف الذي سيق من أجله، فيتنوّع الإيقاع بتنوّع الأجواء المصاحبة له. و هكذا دائماً يلتقى جمال التعبير بجمال التصوير، و يتسقان مع سمو الأهداف في ذلك الجوّ القرآني العجيب.

تبين لنا حسب تلك الجداول الإحصائية لسورتي النجم و القمر أنّ غالبية التواتر كانت للحروف المجهورة في سورة القمر ٧٠٧ مرّة، ثمّ للحروف المجهورة في سورة النجم ٦٠٦ مرّة، ثمّ تواترت الأصوات اللينة في سورة النجم ٤٦٠ مرّة و في سورة القمر ٣٦١ مرّة. و هذا التواتر تناسب مع جوّ السورتين، الجوّ الذي يتحدّث عن موضوع الرسالة و أهوال القيامة و ما حلّ بالأمم الطاغية و كلّ ذلك جاء في قالب أسلوب مخيف يهزّ المشاعر هزّاً.

تواترت الأصوات المجهورة في السورتين ١٣١٣ مرة التي تشغل ٦٧/٩٢ من مجموع الأصوات المجهورة و المهموسة. في حين تواترت الأصوات المهموسة ٦٢٠ مرة التي تشغل ٣٢/٠٨ من مجموع الأصوات المجهورة و المهموسة. و هذا كما أشرنا إليها تدلّ على تناسب تامّ بين الأصوات مع الدلالات التي توحىها في هذا النصّ القرآني الجميل.

تكرّرت الأصوات الشديدة في السورتين ٤٣٩ مرّة و التي شكّلت ٤٧/٢٥ من مجموع الأصوات الشديدة و الرخوة بينما تكرّرت الأصوات الرخوة ٤٩٠ مرّة و تشكّل ٥٢/٧٤ من مجموع الأصوات الشديدة و الرخوة. إذن هناك نوع من التناسب في عدد تواتر الشديدة و الرخوة. و هذا التناسق يرجع إلى كون السورتين دالّة على المفاهيم التي تناسب مع كلا القسمين من الأصوات.

من خلال هذه الجداول الإحصائية نلاحظ بأنّ الأصوات المجهورة و الأصوات اللينة تناسب أكثر التناسب مع الدلالات التي توجد في السورتين، فهناك تناسب بين الأصوات المجهورة و دلالاتها حينما يتحدّث الله تعالى عن التذكير و الإنذار للكفرة الفجار، كما أنّ هناك تناسب تامّ بين الأصوات اللينة و دلالاتها عندما انتقل الكلام إلى بيان الغاية من خلق الإنسان و التوجه لوجه الكريم بأنواع القربات و العبادات. إذن من أكثر السور/القرآن تناسقاً بين اللفظ و المعنى هي ما رأينا في سورتي النجم و القمر حيث هناك تناسق تامّ بين الصوت و المدلول في أدقّ صورة و أجمل شكل.

جدول توضيحي يبين عدد تواتر الأصوات في سورتي النجم و القمر

الأصوات	النجم	القمر	المجموع
ب	٤٤	٥٩	١٠٣
ت	٤٠	٣٦	٧٦
ث	١٠	٢	١٢
ج	١٢	١٩	٣١
ح	١٨	٢٣	٤١
خ	٧	٧	١٤
د	٢٨	٤٧	٧٥
ذ	٢٣	٤٢	٦٥
ر	٤٥	١٠٨	١٥٣
ز	١٦	١١	٢٧
س	٣٠	٣٣	٦٣
ش	١٤	١٤	٢٨
ص	٣	١٣	١٦
ض	٩	٦	١٥
ط	٧	٨	١٥
ظ	٤	١	٥
ع	٣٤	٥٣	٨٧
غ	١٤	٥	١٩
ف	٣٧	٥٠	٨٧
ق	١٧	٤٨	٦٥
ك	٣٣	٥٧	٩٠
ل	١٥١	١٢٣	٢٧٤
م	١١٢	١١١	٢٢٣
ن	١١٤	١٢٢	٢٣٦
و	١١٤	٩٨	٢١٢
هاء	٦٢	٥١	١١٣
ي	٥٠	٥٢	١٠٢
همزة	١١	٢٢	٣٣
الف مد	٢٦٦	٢١١	٤٧٧

المصادر

- ابن منظور، محمد بن مكرم (١٩٨٨). *لسان العرب*، تعليق: علي شبري، بيروت: دار إحياء التراث العربي.
- أنيس، ابراهيم (١٩٨٤). *الأصوات اللغوية*، مصر: مكتبة نهضة مصر.
- بحري، نوار (٢٠١٠). «نظرية الإنسجام الصوتي و أثرها في بناء الشعر»، رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه في اللغة العربية، الجزائر، جامعة الحاج لخضر - باتنة.
- بدر، عبدالله أبو سعود. «الإعجاز الصوتي في القرآن»، http://www.ejaz.org/arabic/index.php?option=com_content/
- البع، محمد (٢٠٠٩). «دلالة الأصوات في فواصل آيات جزء عم - دراسة تحليلية»، *مجلة الجامعة الألفية*، المجلد ١٣، العدد ٢.
- التحريشي، محمد (٢٠٠٠). *أدوات النص*، دمشق: اتحاد كتاب العرب.
- حسن جبل، محمد حسن (٢٠٠٦). *المختصر في أصوات اللغة العربية (دراسة نظرية و تطبيقية)*، القاهرة: مكتبة الآداب.
- الخالدي، صلاح عبدالفتاح (بالتا). *نظرية التصوير الفني عند سيد قطب*، الجزائر: دار الشهاب.
- داية، فايز (١٩٩٦). *علم الدلالة العربي، النظرية و التطبيق*، دمشق: دار الفكر.
- رازي، محمد بن أبي بكر (١٩٨٣). *مختار الصحاح*، الكويت: دار الرسالة.
- راغب اصفهاني، حسين بن محمد (١٤١٢ ق). *المفردات في غريب القرآن*، تحقيق: صفوان عدنان داود، دمشق و بيروت: دار العلم دار الشامي.
- زوين، علي (١٩٨٦). *منهج البحث اللغوي بين التراث و علم اللغة الحديث*، دار شؤون الثقافة العامة.
- السعران، محمود (١٩٦٤). *علم اللغة (مقدمة للقارئ العربي)*، القاهرة: دار الفكر العربي.
- سيوطي، جلال الدين (١٩٨٦). *المزهر في علوم اللغة و أنواعها*، ج ٢، شرح و تعليق محمد جاد المولى بك و الآخرين، بيروت: المكتبة العصرية صيدا.
- شاملي، نصرالله و ماجد نجاريان (٢٠٠٥). «الإيقاع القرآني و تأثيره على أوزان الشعر العربي»، *مجلة العلوم الإنسانية الدولية*، السنة ١٢، عدد ٤.
- شاملي، نصرالله؛ طالب قره قشلاقي، جمال (٢٠١١). *الإيقاع في خطب نهج البلاغة*، مجلة العلوم الإنسانية الدولية، السنة ١٨، عدد ٣.
- الصابوني، محمد علي (١٣٩٩ هـ). *صفوة التفاسير*، ج ٣، بيروت: دار الفكر.
- الصغير، محمد حسين (بالتا). *الصوت اللغوي في القرآن*، بيروت: دار المورخ العربي.
- طحان، ريمون (١٩٧٢). *الألسنية العربية*، ج ١، بيروت: دار الكتاب اللبناني.
- عبدالنواب، صلاح الدين (١٩٩٥). *الصورة الأدبية في القرآن الكريم*، القاهرة: الشركة المصرية العالمية للنشر، لونجمان.
- عبدالجليل، منقور (٢٠٠١). *علم الدلالة أصوله و مباحثه في التراث العربي*، دمشق: منشورات اتحاد كتاب العرب.
- عمران، حمدي بخيت (٢٠٠٧). *علم الدلالة بين النظرية و التطبيق*، القاهرة: الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعي.
- فياض، محمد (١٩٩٩). *إعجاز آيات القرآن في بيان خلق الإنسان*، بيروت: دار الشروق.
- فيروزآبادي، محمد بن يعقوب (١٩٨٣). *القاموس المحيط*، بيروت: دار الفكر.
- آفاق الحضارة الإسلامية، السنة الخامسة عشرة، العدد الثاني، الخريف و الشتاء ١٤٣٤ هـ.ق

- قطب، سيد (١٩٨٠). *فى ظلال القرآن*، القاهرة: دار الشروق.
- المبارك، محمد (١٩٨١). *فقه اللغة و خصائص العربية* (دراسة تحليلية مقارنة للكلمة العربية و عرض لمنهج العربية الأصيل فى التجديد و التوليد)، ل.اب، دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع.
- محمد داود، محمد. «الإعجاز الصوتى فى القرآن الكريم»، <http://forum.stop55.com/9947.html>
- محمد قدور، احمد (١٩٩٩). *مدخل إلى فقه اللغة العربية*، بيروت: دار الفكر المعاصر.
- محمد مهدى، جنان (٢٠١٠). «الإيقاع الصوتى الإيحائى فى سياق النص القرآنى»، *مجلة كلية التربية للبنات*، السنة ٤، العدد ٢١.
- مختار عمر، أحمد (١٩٩٨). *علم الدلالة*، القاهرة: عالم الكتاب.
- مزارى، شارف (٢٠٠١). *مستويات السرد الإعجازى فى القصة القرآنية*، دمشق: اتحاد الكتاب العرب.
- مطر، عبدالعزيز (١٩٩٨). *علم اللغة و فقه اللغة*، تحديد و توزيع، ل.اب، دار قطر بن الفجاءة.
- معلوف، لويس (١٣٨٦). *المنجد فى اللغة*، قم: دار العلم.

